مقياس: مصادر فلسفية2.

المحاضرة الرابعة: رسالة في التسامح لجون لوك (تابع).

عرض كتاب التسامح

1. تحليل الكتاب: يعدّ كتاب "رسالة في التسامح" لجون لوك من الكتب صغيرة الحجم والغنية في المحتوى، إذ إنّه يقع في حدود 77 صفحة، يتحدث خلالها المؤلف عن التسامح من منظورين؛ منظور تاريخي، ومنظور أيدولوجي، كما أنّه يفرّق في مفهوم "التسامح الديني" بين التسامح الشكلي الذي يُقصَد به ترك كل دين وشعائره وقواعده الخاصة وشأنه، والتسامح الموضوعي الذي يُقصد به الاعتراف بوجود أديان أخرى على أنها ممكنة لعبادة الخالق[1].

ويقسم التسامح إلى ثلاث أقسام أساسية بناء على نظرته له على أنه حق طبيعي وأنه في ذاته فضيلة، على عكس النظرة التقليدية التي تربط بينه وبين الحرية وترى أن التسامح يحمل في ذاته طابع السلبية، فهذه الكلمة جائرة لا تقدمنا الا كمواطنين نستحق الشفقة وكمذنبين ينالون الصفح.

أولا - التسامح السلبي، وهو التصور بالتنازل او الصفح عن الاختلاف في الرأي والعقيدة. وهذا التصور ناتج عن الاعتقاد انه لا حق الا ما أراه حقا وواجبا. وهذه الدعوى تعني امتلاك الحقيقة المطلقة والوحيدة.

ثانيا: التسامح الحيادي، وهو ناتج عن اقرار المرء باحتمال كونه على خطأ واقراره بحق غيره بالخطأ ايضا. وبهذا فليس هناك حاجة الى ان اصفح عن خطئه ولا هو في حاجة الى ان يعتذر عن هذا الخطأ. وبهذا المعنى فالتسامح ليس صفحا عن خلاف مع الاخر، وانما احترام لحقه في المخالفة.

ثالثا: التسامح الايجابي، وهو العفو والصفح عن الاساءة الغير مادية او معنوية، وهو ارقى انواع التسامح، وهو فضيلة من اكبر الفضائل الاخلاقية. وبهذا فإن التسامح لا يتناقض مع حرية الرأي، لأنه ضامنا لها، أما في غياب الحرية في الرأي والاعتقاد فهو تسامح سلبي دوما[2].

إلى جانب ما سبق يُضمّن جون لوك كتابه هذا رؤيته حول وظائف السلطة السياسية وحدودها، وأنها غير مخوّلة للتدخل في شؤون العقيدة والعبادات، ولا يمكنها فرض قوانينها على الكنائس والدين الذي يُمارس فيها؛ لذا فإنّ مهامها تقتصر فقط على حماية الممتلكات المدنيّة وتسوية النزاعات في المجتمع المدني، أما الخلافات الدينية فلا حاجة لتدخل الدولة بها؛ فالدين يخصّ الفرد وحده حسب ما أشار إليه جون لوك في كتابه هذا[3].

كما يُشير جون لوك إلى أنّه ترتبط بالتسامح ثلاثة ضوابط أساسية؛ وهي الخلاص، والكنيسة، والحاكم المدني، موضحًا تعريف كلّ منها على الصعيد الديني وعلى الصعيد السياسي؛ فهو يقصد بالخلاص على الصعيد الديني الطريقة التي تتعلّق بالفرد وحده ويمكنه من خلالها تطهير نفسه من

---

[1] جون لوك، رسالة في التسامح، تر: منى أبو سنة، مكتبة الأسكندرية، بد ط، 1999، ص

[2] إبراهيم الحيدري: جون لوك والتسامح، مجلة إيلاف الإلكترونية، العدد 8325 الأحد 11 فبراير 2024، تاريخ الوضع 23-12-2012، تاريخ التنزيل12-02-2024، https://elaph.com/Web/opinion/2012/12/781494.html.

[3] جون لوك، رسالة في التسامح، المصدر السابق.

الخطايا، لذا فإنّ الخلاص هو الذي يُهيئ نشوء التسامح في المجتمعات، أما على الصعيد السياسي فإنّ الخلاص هو ضمان أمن الدولة واستقرارها[4].

لذا يخلص المؤلف جون لوك في هذا الكتاب إلى أنّ التسامح شكّل قيمة إنسانية نشأ من مجتمع تعددت فيه العوامل الثقافية والاجتماعية التي ساهمت في صبغ أوروبا بصبغة جديدة، فكان التسامح الديني الركيزة الأساسية التي اعتمدت عليها أوروبا للخروج من دائرة النزاعات والخلافات التي شهدتها في القرن السابع عشر، كما كان بمنزلة ضمان لتحقيق سعادة جميع الأفراد دون تمييز ونشر قيم المحبة والسلام بين مختلف الفئات[5].

2. معارضة جون لوك: بعد رسالة لوك في التسامح ظهرت رسائل أخرى لمؤلفين آخرين في ذات الموضوع وهذا لأهميته في بداية أي عملية تغيير في المجتمعات، وفي الأوضاع، وهذا لتجاوز مصادر العنف والاضطهاد الديني أو السياسي أو الاجتماعي. ومن أهم هذه الرسائل التي أعقبت رسالة جون لوك نجد، رسالتي فولتير، وجون ستوارت مل.

1.2. رسالة في التسامح لفولتير: (1694،1778) ظهرت رسالة في التسامح لفولتير في وضع أكثر تطرفا وضيقا في الأفق مما كان عليه الحال في إنجلترا، وفي وضع حاول فيه نظام الحكم الإبقاء على الأحوال السائدة لخدمتها مصالحه، واتهام المعارضين له (مفكري الأنوار) بإلحاق الإساءة بالدين والسلطة صاحبة التفويض الإلاهي[6].

وقد دعا فولتير كغيره من فلاسفة التنوير للبحث عن سبل التطور والتقدم في المجتمع البشري وكذلك لنشر السلم والأمن، كما أن فولتير كان مؤمنا بكل ما يقدمه العقل البشري ناقدا كل ما هو خرافي ووهمي نابع من الكنيسة وسلطتها وهذا لأغراض أخرى أي مصالح ذاتية متعلقة بالكنيسة في حد ذاتها، ولا تمت للصالح العام بأي هدف أو نتيجة على عكس ما يهدف إليه العقل الذي يسعى للتخلص من قيود هذه السلطة ونشر مبادئ وقيم مفادها خدمة الصالح العام. كما حث الفيلسوف فولتير أو كما يلقب بفيلسوف التسامح على التسامح وتأييده وهذا من خلال المبادئ التي جاء بها, ومن أبرز هذه المبادئ نجد تعميم التسامح. وهنا يتجلى لنا أن فولتير جاء مخالفا لسابقه جون لوك في هذا المبدأ الذي اعتبره ضروري[7].

2.2. رسالة في التسامح لجون استوارت مل: (1806، 1873) ذهب جون ستيوارت ميل حسب مفهومه إلى أن التسامح لا يقتصر على الأفراد فقط، بل هو أبعد من ذلك ليشمل المؤسسات والمجتمعات بأنواعها، وقسمه إلى نوعين: أولهما أخلاقي، والآخر غير أخلاقي لأنه ينبت الكره داخل كل الفرد، فأما الأخلاقي فقد اعتبر أن على الفرد أن يسمح بالخطأ لكي يزرع بين الأفراد التسامح، ومنه نجد أن ميل من أبرز الفلاسفة الذين عالجوا قضية التسامح، حيث أرجعها إلى إعطاء الأفراد حرية كبيرة وعدم التمييز فيما بينهم في المجتمعات، وحسب ميل حتى يكون مسموح سماع وجهة نظر في إطار الحرية الحديثة، ولكي يتحقق التسامح يجب أن يكون مضمونا

---

[4] المصدر نفسه.

[5] المصدر نفسه.

[7] وليام كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، تر: محمود سيد احمد، التنوير لطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1- 2010 ص 233.

[7] المرجع نفسه، ص 234

ما سبق ليتم القبول بالأفكار. فلكون ميل من رواد التسامح فقد ربط مفهوم التسامح بالحرية المطلقة (الليبرالية)، مع عدم التدخل في حرية الفرد إلا إذا كانت تشكل تهديدات لحريات للآخرين[8].

[8] عبد القادر الشيخلي، ثقافة التسامح (ضرورة أخلاقية واجتماعية وسياسية)، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، ط1، 2017، ص21.